

مطوي لا نبصر منه إلا قسماً ضئيلاً، كلمات قليلة، ويتعين علينا أن نقوم بنشره وبسطه كاملاً لنقف على الأقسام الغائبة والكلمات الشاردة.

ليس من العجب أن تكلم الحيوان، العجب هو أن يكلمك الحيوان، وهذا شيء نادر لم يتيسر إلا لأشخاص قلائل كالنبي سليمان الذي خاطبه الهدهد وتوجهت إليه النملة بالقول. إن ما حدث لأبي سهل القرشي يكرّر النموذج السليمانى. وبصفة عامة فإن الكرامات المثبتة في كتاب التشوف تُعيد أمثلة سابقة، بحيث إن المتلقي يندهش منها في مرحلة أولى، ثم يخفّ اندهاسه بعض الشيء في مرحلة ثانية عندما يرجعها إلى معجزات أو كرامات حصلت فيما قبل. فالكرامة مبنية على التكرار، والولي ملزم ضمناً بالانخراط في صف من سبقوه، ملزم بالاندماج في أسرة الأنبياء والأولياء، لأن هذا الاندماج هو الذي يؤكد جدارته واستحقاقه ويمنحه بعداً دينياً لا يتحقق بصفة تامة في حالة انفراد الولي بكرامة لا مثيل لها في الماضي.

إن ما حصل لأبي سهل (مخاطبة الجمل له) يبرز بصفة أوضح عندما يربط عمودياً بنماذج ماضية (النبي سليمان)، وأفقياً (أي في سياق التشوف) بتجارب مماثلة، تجارب لا تنحصر في حديث الحيوان، بل تشمل الحديث بصفة عامة وعلاقة الأولياء مع الكلام. وإذا كانت الكرامة مرتبطة بخرق العادة، فإن ما خرق في قصة أبي سهل قانون لغوي يقضي بأن العجماءات لا تنطق وليس في استطاعتها تبعاً لذلك أن تخاطب الإنسان بلسان عربي مبين. يترتب عن خرق العادة أن علاقة الأولياء باللغة، وبالكلام، علاقة غير عادية في أغلب الأحيان.

من المعروف أن أحوال الأولياء تُخالف ما ألفه الناس وما درجوا عليه. فمنهم من «إذا اشتهى اللحم اصطاد السلاخف في البرية فأكل لحمها»،⁽²⁾ ومنهم من يشرب ماء البحر إلى أن يروى،⁽³⁾ ومنهم من يفتر من العمران ويأوي إلى «الشواهق

(2) ابن الزيات، ص. 110.

(3) ابن الزيات، ص. 415.